الفصل السادس

شمال شرقي أفريقيا وشرقيها

خلال العصور الوسطى والعصر الحديث

لم ينتشر الإسلام في شرقي أفريقيا بالسرعة التي انتشر بها في مصر. وعلى الرغم من أن الدولة المسيحية في أكسوم بالحبشة كانت دائمة الإغارة على جنوبي الجزيرة العربية حتى ليلة مولد الرسول الكريم، فإنها تركت في سلام عدة قرون بعد ظهور الإسلام. وفي القرن السابع، انتهز المسلمون فرصة ضعف الدولة فاستولوا على جزيرة (دحلق) المجاورة وعلمنا من كتَّاب العرب في القرنين التاسع والعاشر، أمثال اليعقوبي وابن حوفل، أنه حتى هذه الآونة كانت الحبشة لا تزال تسيطر على معظم ساحل البحر الأحمر في مواجهة اليمن وامتد نفوذها إلى خليج عدن حتى زيلع في الساحل الشمالي للصومال. وكانت مجموعات من تجار المسلمين تشغل الأراضي الساحلية وخاصة الموانئ ويدفعون الضرائب لملك الحبشة ولم يعتبر المسلمون أن الحبشة أرض للجهاد.

وبينما كان ظهور الإسلام نقطة تحول في تاريخ الحبشة، فإن هذا لم يحدث إلا بعد وقت ليس بالقصير. فقد قطعت دولة الإسلام على الحبشة علاقتها بخلطائها من دول البحر المتوسط ولم تقم حروب صليبية أو جهاد في شرقي أفريقيا؛ وسبب ذلك أن كنيسة الحبشة كانت تتبع الكنيسة

المصرية وبذلك استفادت كنيسة الحبشة من استقرار المسيحية في مصر.

وخلال العصور الوسطى وعصر الصليبيين، كان قساوسة الحبشة من القاهرة، وكان حجاج الحبشة لبيت المقدس يمرون بمصر رافعين أعلامهم ويدقون الطبول وكانوا يتوقفون لإقامة الشعائر الدينية. وفي الواقع أن صلاح الدين– قاهر الصليبيين– هو الذي أهدى كنيسة القدس للحبشة لتكون مركزًا دينيًّا لهم.

ولم تأت كارثة الحبشة من مسلمي الشمال بل من الوثنيين في الجنوب. وتفاصيل تلك الأزمة غير معروفة لنا– أنه خطاب واحد الذي بقي ليكشف بعضًا من الغموض عن هذه الكارثة والخطاب لأحد ملوك الحبشة لأخيه ملك النوبة في أواخر القرن العاشر، يروي له فيه مأساة دولية مؤلمة تحولت مدنها إلى خرائب وأصبحت خاوية على عروشها بعد أن كانت تنعم بالحياة بسبب غارات الدولة الوثنية المجاورة.

ويحتمل أن تكون تلك الدولة هي دولة أجاو في داموت على النيل الأزرق. ثم قامت أسرة من الملوك بالنهوض بالدولة مرة أخرى عرفوا بملوك زاجوي وعاشوا في تقشف داخل معسكرات وأخذت الدولة تمتد جنوبًا حتى ضمت (أمهرا ولاستا وجوجام وداموت).

وكان التوسع صوب الجنوب هو الذي سمح بانتشار الإسلام من ساحل البحر الأحمر إلى الداخل وعلى امتداد الحدود الشرقية للدولة المسيحية. ومنذ ابتداء القرن العاشر، قامت مجموعة من الولايات الإسلامية من ميناء زيلع وتتجه شمالًا على طريق التجارة في وادي حواش

وتتبع السكة الحديدية حتى أديس أبابا وكانت تحكم هذه الولايات أسرة صومالي وتتاجر في الرقيق والعاج والذهب.

ولم يهدد وجود تلك الولايات الإسلامية الدولة المسيحية المجاورة لها حتى جاءت أسرة (سولومونيك) وبدأت تتخذ موقفًا عدائيًّا من المسلمين في القرن الثالث عشر ونجحت تلك الأسرة في إخضاع المسلمين لضريبة ودية، وذلك في القرن الرابع عشر، كل هذا ولم يصل بعد العداء إلى حرب دينية سافرة.

وفي عام ١٤١٥ قتل الأحباش ملك الولايات الإسلامية وانسحبت فلول المسلمين إلى اليمن حيث أعادوا تنظيم أنفسهم وجمع شملهم وعادوا إلى أقصى الساحل الشرقي للصومال وأقاموا دولة (عادل) مصممين على الجهاد ضد الحبشة. وفي هذه الآونة كان العثمانيون قد جلبوا إلى مصر الأسلحة النارية والمدفعية ونجحوا في الوصول بها إلى الجنوب في موانئ البحر الأحمر وفي بلاد العرب، ووجدوا في دولة (عادل) جموعًا متحدة من المسلمين وعلى استعداد لاستعمال تلك الأسلحة ضد الأحباش، وكادوا يقضون على دولتهم لولا تدخل البرتغاليين في آخر لحظة سنة ١٥٤٢، إذ تدخلت قوة اسكتشافية برتغالية لتحول دون قضاء دولة عادل الصومالية والمسلحة بالأسلحة التركية على الدولة المسيحية في الحبشة، وقد جاهدت البعثة البرتغالية خلال ما يقرب من مائة سنة لتُخضع الكنيسة الحبشية لكنيسة روما دون جدوى. ويعتبر هذا النشاط الوحيد الذي قامت به البرتغال في شرقي أفريقيا حتى شمال نهر زمبيزي ثم وجهوا نشاطهم نحو الجزر والمدن الساحلية مثل موزمبيق وزنزبار وبما وموميباسا وجزر لامو

وانحصر هذا النشاط في استغلال ذهب زامبيزي، وكانت قوافل الهند الشرقية تبحر من موزمبيق إلى جوا وبعد استعمار البرتغال ببضع سنوات تحول هذا إلى أوروبا.

وفي عام ١٥٩٣، أقام البرتغاليون قلعة في مومباسا وزودوها بحامية للسيطرة على الساحل مع ملاحظة أنهم طُردوا عام ١٦٢٢ من الخليج الفارسي، ثم بدأت عمان في الإغارات المستمرة على الساحل الشرقي حتى زنزبار. وفي عام ١٧٠٠، خرج البرتغاليون نهائيًّا من شمالي أفريقيا وزنزبار وتمكنوا من الاحتفاظ بروديسيا وعاد بذلك الاتصال الثقافي والحضاري للإسلام بأفريقيا الشرقية.

وشهد القرن الثامن عشر اندماج ولايات الساحل الشرقي تحت حكم العرب بزعامة (عرابي) أمام عمان ومن هذه القواعد بدأ التوغل في أواسط أفريقيا.

وعلى الرغم من قلة الآثار للقرون الخمسة الأولى للإسلام، فإن هذه الأدلة على قلتها تشير بوضوح– منذ منتصف القرن الثالث عشر حتى قدوم البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر– إلى الرخاء الذي كان ينعم به الساحل الشرقي؛ فعلى طول الساحل الصومالي وكينيا وتنجانيقا بنى المسلمون أبنية من الحجر عليها سمات البذخ كانوا يحضرون إليها الحجارة الفاخرة من سيام والخزف من الصين وصك السلاطين النقود من النحاس، ولا يوجد تفسير مقنع عن أسباب هذا الرخاء ومصدره. هل مثلًا اكتشفت موارد جديدة في شرقي أفريقيا؟ وقد عرفت (مالينـدى) ومباسا منذ القرن الثاني عشر بوجود مناجم

غنية من الحديد الخام الذي كان يصدر إلى الهند لتصنع منه السيوف والنصال والخناجر الصلب واختصت مقديشيو بصناعة الغزل، فكانت تنتج نسيجًا قطنيًّا خشنًا وأقمشة من وبر الجمل للسوق المصرية. وبدون شك كانت تجارة الرقيق والعاج هي التجارة الثابتة للتصدير على طول الساحل.

وكان القرن الثالث عشر يتميز بالنهضة الثقافية والدينية، فدخل الإسلام جديًّا في الهند وكذلك في إندونيسيا والملايو وجاوه وسومطرة. ومن ثم انتقلت تجارة المحيط الهندي إلى أيدي المسلمين وأخذ مسلمو شرقي أفريقيا في الإكثار من بناء المساجد والمقابر على طول الساحل.

ولا يعتقد وجود تبادل تجاري بين الساحل الشرقي ووسط أفريقيا، أما في شمالي منطقة قبائل ناتنو فتشير الدلائل إلى أن الساحل الصومالي وخاصة بعد اعتناقه الإسلام تبادل التجارة مع الداخل– مثل منطقة جالا– جنوبي الحبشة والتي تقطنها القبائل الوثنية.

ولا يبدو أنه كان هناك اتصال بين ساحل زنزبار ومنطقة البحيرات التي كانت أكثر المناطق ازدحامًا بالسكان في ذلك الوقت وحيث تشير الدلائل الأثرية إلى قيام ولايات منظمة على الأقل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

والسبب في ذلك هو وجود حزام من الجفاف وأرض وعرة لا تصلح للزراعة تفصل بين الساحل ومنطقة البحيرات. وظل الحال كذلك حتى القرن الثاني عشر عندما اندفع شعب بانتو من تانجانيقا إلى جنوبي منطقة البحيرات ليزرعوها؛ وبذلك فتح طريق التجارة لأول مرة بين الساحل ووسط أفريقيا.